دور الثقافة في بناء هوية المجتمعات-بين ضرورات التحفظ ودواعي الانفتاح-

The Role of Culture in Building Identity of Communities: Between the necessities of the reservation and the reasons for openness

الدكتورة/ لبنى جصاص
جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر
loubnadjessas@gmail.com

تاريخ الاستلام:2018/08/18 تاريخ القبول للنشر:2018/10/30

❖❖❖❖❖❖❖

ملخّص:

تعبر الثقافة عن مجموع الأفكار والقيم والعادات وطبيعة العلاقات وحتى الروابط العاطفية بين أفراد جماعة بشرية معينة، وبهذا المعنى فإن الثقافة هي موجود مكتسب وليس فطريا في الفرد، وهذا ما يجعلها قابلة للتغيير بكسب قيم ومعارف جديدة والتنازل عن أخرى حسب الجو العام السائد الذي تعكسه طبيعة البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع من جهة، وحسب درجة علاقة الفرد بهذه الجماعة "المجتمع" وتوجهاته وتطلعاته وتأثره ببيئته من جهة أخرى.

وفي صورة مقاربة فإن الهوية هي الأخرى مركب اجتماعي معياري مكتسب، قابل للنمو والتطور والتغيير بناء على مجموعة من المحددات ووفق سياقات معينة زمانية ومكانية، فالهوية هي شعور وجداني يحدد ارتباط الفرد بوطنه ومجتمعه وجماعته من خلال محددات ثقافية مؤثرة.

في ظل هذا التقارب بين المفهومين نبحث في هذه الورقة البحثية العلاقة بين الهوية والثقافة ودور هذه الأخيرة في بناء الأولى.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الثقافة؛ العولمة؛ التحفظ الثقافي؛ الانفتاح الثقافي.

Abstract:

Culture expresses the totality of ideas, values, customs, nature of relationships, and even emotional bonds between members of a particular human group. In this sense, culture is an acquired and not an innate existence in the individual, which makes it subject to change by gaining new values and knowledge and relinquishing others according to the general atmosphere reflected by the nature of the structure Social and economic aspects of society, on the one hand, and according to the degree of the individual's relationship with the community, its orientations and aspirations, and its impact on its environment on the other.

Identity is also a normative social compound acquired, capable of growth, development and change based on a set of determinants and in certain temporal and spatial contexts. Identity is a sentimental feeling that determines the individual's connection to his country, society and community through influential cultural determinants.

In light of this convergence between the two concepts, we examine in this paper the relationship between identity and culture and the role of the latter in building the first.

Keys words:*Culture, Identity, Globalization, cultural reservation, cultural openness.*

مقـدّمـة:

تعد الثقافة البوتقة التي ترتسم من خلالها ملامح الهوية للمجتمعات؛ فالثقافة هي ذلك المخزون المعبر عن تطور الحياة وطبيعة العلاقات بين الأفراد ضمن المجتمع الواحد خلال تعاقب الأزمنة. هذا التراكم التاريخي يكوّن هوية للمجتمع ويعرف به ويتميز عن باقي المجتمعات حيث يتجسد هذا التمايز في مختلف الزوايا الثقافية من رسم، وشعر، ورواية، وموسيقى، ورقص، وفن الطعام،... وبهذا يصح القول أن الثقافة في المجتمع هي الظاهر لباطن ثمين هو الهوية.

إلا أن ثقافة المجتمعات عرضة للتطور والتغير والتقاطع مع الثقافات الأخرى بحكم هذا التمازج والتشابك في العلاقات بين الدول والشعوب والمجتمعات؛ فما كان خاصا سابقا صار اليوم حقا عالميا، في إطار تطور مفهوم العولمة بمختلف أبعادها خاصة الثقافية منها، وفي ظل التطور الرهيب في قنوات الاتصال والتواصل بين الأفراد في مختلف الأقاليم العالمية.

هذا الواقع المشار إليه في الفقرتين السابقتين دفعنا إلى طرح إشكالية الحفاظ على هوية المجتمعات في ظل ضرورة الانفتاح الثقافي على باقي الأمم، إذ يبرز للعيان هذا الطيف من الصراع الداخلي سواء داخل الفرد أو الجماعة أو على ـ مستوى أوسع المجتمع ـ بين الاعتزاز بالذات والأنا مقابل حب التعرف على الآخر وتقليده، وفق التساؤل التالي: إلى أي مدى تؤثر الثقافة على بناء هوية المجتمعات؟

يقودنا السؤال المركزي إلى أسئلة أخرى على النحو الآتي: ما العلاقة بين الثقافة والهوية المجتمعية؟ ماهي محددات الهوية؟ وكيف تساهم القيم الثقافية في رسم وبناء الهوية؟ كيف يمكن للمجتمعات أن تحافظ على هويتها في ظل الانفتاح الثقافي؟

وحتى نتمكن من معالجة إشكالية المقال تم الاعتماد على المنهج الوصفي لما يتميز به من خصائص تتناسب والأغراض العلمية للموضوع المطروح، وذلك كونه يسمح لنا بالتعرف على الظاهرة محل الدراسة، المنوطة هنا بكل من الهوية والثقافة كظاهرتين اجتماعيتين لهما امتداد إلى كامل الأنساق الفرعية الأخرى في المجتمع؛ فمن خلال الاعتماد على الملاحظة القائمة على تتبع المسار الاجتماعي لكل من الثقافة والهوية داخل المجتمعات، نستطيع لاحقا إدراك مستوى وحجم العلاقة بينهما، ومن ثم فتح المجال أمام صياغة توصيات ختامية للبحث.

بناء على ما تقدم تم صياغة الفرضيتين التاليتين:

- إن غياب مؤسسات داخل المجتمع تحمي وتعمل على التعريف بثقافته يؤدي إلى إمكانية المساس بهوية المجتمع خاصة في ظل التطور الهائل لتكنولوجيا المعلومات .

- كلما تزايدت شدة الارتباط وتكاثف العلاقات الثقافية بين المجتمعات، كلما أدى ذلك إلى ذوبان الهوية باتجاه هوية واحدة عالمية كانت أو إقليمية يرسم حدودها وقيمها الطرف الأكثر تأثيرا.

أما عن الأهداف العلمية للمقال فيمكن إيجازها في النقاط التالية:

- التأكيد على ضرورة الحفاظ على مقومات الهوية، باعتبارها البطاقة التعريفية المحددة للعلاقات فيما بين المجتمعات،

- التأكيد على أن الثقافة تعد المدخل الرئيسي للحفاظ على هوية المجتمع،

- توجيه الباحثين إلى مستويات ومتغيرات بحثية أخرى -قيمية بالدرجة الأولى- تشكل أساسا للعديد من الإشكالات المطروحة على المستوى الداخلي-الوطني، الإقليمي والدولي، خاصة ما تعلق بالمسائل المرتبطة بقضية اللاجئين، والهجرة بشقيها الشرعي والغير شرعي، والنزاعات ذات البعد الهوياتي والصراع الحضاري والثقافي... وغيرها من الظواهر المرضية.

وفيما تعلق بالبنية الهيكلية للمقال فإنه سيتم مناقشة العلاقة بين الثقافة والهوية إلى جانب معالجة التساؤلات المطروحة وفق محورين أساسيين هما:

- تحديد المفاهيم: الثقافة والهوية

- دور المحددات الثقافية في بناء الهوية المجتمعية بين الانفتاح والتحفظ

المحور الأول

تحديد المفاهيم: الثقافة والهوية

تعددت وتنوعت التعاريف المرتبطة بمفهومي كل من الثقافة والهوية استنادا إلى مجموعة من الاعتبارات، يرتبط جزء كبير منها بالتطور العلمي أو إن صح التعبير التطور التقني الاتصالي المتعلق بالثورة التكنولوجية والمعلوماتية التي تشهدها المجتمعات بمستويات متباينة، وهو ما يتوافق والحديث عن "تحديث المجتمعات"، في إطار الارتباط الوثيق بين كل من مفهوم المجتمع، الثقافة والهوية، فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، والمجتمع لا يستمر ويبقى إلا بالثقافة، فمن خلال هذه الأخيرة يمكن التمييز بين مجتمع وآخر، وعلى أساس العلاقة بينها وبين المجتمع ترتسم ملاح هوية المجتمعات.

أولاً- تعريف الثقافة:

يعد التعريف الذي قدمه إدوارد تايلورEdward Taylorمع نهاية القرن التاسع عشر من أشهر التعاريف التي اقترنت بمفهوم الثقافة* حيث جاء في كتابه عن الثقافة البدائية primitive culture أن الثقافة هي: "كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون و الأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع[1]، فالثقافة حسب ما ورد في

هذا التعريف عبارة عن سلوكات مكتسبة نتيجة للتفاعل الاجتماعي. وفي ذات السياق عرف عالم الاجتماع روبرت بيرستد R. Bierstedt في أوائل ستينيات القرن الماضي الثقافة بأنها: "ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في مجتمع"(2)، وهذا ما يفسر اختلاف الثقافات وذلك لأن نمط الحياة المادي والفكري يختلف من مجتمع لآخر، وهو ما يولد ذلك الشعور بالحفاظ على الخصوصية التي توصف بالهوية.

وهذا ما ذهب إليه مالك بن نبي في تعريفه للثقافة بقوله: "أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته لتصبح لاشعورية، تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"(3).

استنادا إلى التعاريف المقدمة نخلص إلى أن الثقافة هي مركب اجتماعي بامتياز يترجم البعد القيمي في الإنسان في علاقته بوسطه الاجتماعي، كما يمكن اعتبار الثقافة المرآة العاكسة لحياة الفرد وخلاصة تفاعله مع أقرانه، وبهذا المعنى تقع ثقافة الأفراد ومن ثم المجتمعات دائما بين قطبي الانفتاح و التحفظ المدفوع بالحفاظ على الهوية على اعتبار أن الثقافة هي المدخل الأول والرئيسي باتجاه فهم هوية الأفراد، ومنه فالقدرة على التحكم أو التأثير على هذه الأخيرة محكوم بالقدرة على تغيير ثقافة الأفراد وتوجهاتهم في إطار ما يعرف في نظرية العلاقات الدولية ضمن الاتجاه الليبرالي، إعمال وسائل القوة اللينة* soft power التي نادى بها جوزيف ناي J.Nye، هذا إلى جانب توظيف ما يعرف بـ " الدبلوماسية الثقافية" في تليين العلاقات بين الدول والتخفيف من حدة الخلاف أو التوتر، خاصة وأن العلاقات الثقافية يمكن تطويرها خارج الإطار الرسمي-الحكومي.

وهذا ما يجعل من الثقافة مفهوما يفوق توصيفه اللغوي ويحوله من مجرد مفهوم جامد يشير إلى مجموعة من الرموز والقيم المجتمعية، إلى مفهوم عملي واقعي يتجسد في العلاقات بين الأفراد والدول على حد سواء، ويترجم من خلاله هوية المجتمعات، التي قد يرتسم على أساسها طيف الصداقة والعداوة في العلاقات الدولية.

واستكمالا لما تقدم نتطرق إلى أنواع أو روافد الثقافة التي من خلالها تبنى ثقافة المجتمعات وتتحدد هوياتها. وفي هذا الإطار يصنف بعض الباحثين الثقافة إلى صنفين: الأول منهما يعرف بالثقافة الرسمية أو الثقافة العليا أو الكبرى، وهي تنتقل من جيل إلى آخر من خلال المؤسسات والأجهزة الرسمية أو شبه الرسمية مثل جهاز التربية والتعليم، المعاهد والجامعات، المؤسسات الدينية الرسمية، القوانين الرسمية، الأدب والفنون وغير ذلك من الرموز الثقافية والمعارف التي ترعاها وتحافظ عليها وتضمن استمرارها المؤسسات الرسمية في الدولة. أما الصنف الثاني فيعرف بالثقافة الشعبية أو الثقافة الدنيا أو الصغرى، فهي النتاج العفوي الجماعي المعبر عن شعور وعواطف وحاجات وضمير أبناء الشعب بشكل عام، وليس النخبة أو المجموعة الخاصة وتنتقل بشكل عفوي بين الناس عن طريق التقليد والمحاكاة أو عن طريق الملاحظة والمشافهة(4).

وفي تصنيف قدمه ماكدونالد ميز فيه بين ثقافة العامة والثقافة العالية وثقافة الجماهير، ذهب إلى أن الفن الفلكلوري هو ثقافة عامة الناس في مجتمعات ما قبل الصناعة، وميزة الثقافة العامة أنها لا تنتج فنا عظيما إلا أنها تعتبر ثقافة أصيلة وحقيقية رغم أساليبها المحدودة؛ أما الثقافة العليا فينظر إليها كإنتاج للأشخاص العظماء الذين بمقدورهم إنتاج أعمال تروق لأقلية من الناس، في حين يرى في الصنف الثالث من الثقافة- الثقافة الجماهيرية- على أنها لا تحقق أي قيمة ولا تعبر عن ثقافة حقيقية، فهي حسب ذات الباحث ثقافة نمطية ذات صبغة تجارية فرضتها شركات الأعمال على الجمهور بهدف تحقيق الربح، وهي ثقافة تتطلب جهدا ذهنيا بسيطا ولذلك تلقى القبول، مما يهدد الثقافة العليا[5]، وأكثر من ذلك يتسبب هذا النوع من الثقافات إلى خلق حالة من "صبيانية البالغين" infantile adults يصبحون فيها غير قادرين على مسايرة حياة البالغ بدون الهروب إلى الثقافة الجماهيرية لغرض التسلية، ومن جانب آخر إيجاد أطفال يقظين أكثر من اللازم ينمون بسرعة*، كما تقوض الثقافة الجماهيرية النسيج الاجتماعي حيث يفقد فيه الأفراد قدرتهم على التفاعل مع بعضهم بطريقة ناجحة، ويصبح الناس منعزلين يرتبطون فقط بأنظمة مركزية ومنظمات كالإعلام الواسع والأحزاب السياسية والشركات[6]، وفي ذلك تأثير وتهديد كبير لهوية المجتمع.

وهنا ننفتح على مجال أو مستوى آخر من النقاش محوره الثقافة والإعلام، إذ يلعب هذا الأخير دورا بارزا ومؤثرا في نشر، وفي أحيان كثيرة ،تغليب نمط معين من الثقافة على حساب آخر، حسب أجندات معينة تابعة لجهات معينة قد لا تخدم بالضرورة الصالح العام، حيث يتم الترويج إعلاميا لبعض العادات والسلوكات والأفكار على أنها جزء من القيم الثقافية المكونة لهوية المجتمع، إلا أنه بالتمعن في عمقها نجدها مجرد فقاعات هوائية خالية من أي قيمة إضافية.

يقودنا هذا الحديث إلى التأكيد على أن الثقافة كمكتسب اجتماعي يمكن أن توجه وفق سياسات معينة أو ـ إن صح التعبير ـ أجندات، وهو ما من شأنه التأثير على البنية القيمية للمجتمع بكامله، ولهذا عادة ما يطرح إشكال حول النخب المشرفة على القطاع الثقافي داخل الدول.

وفي أوساطنا تنتشر مفاهيم على ذات الشاكلة، كأن نقول الثقافة الاستهلاكية كإشارة إلى نمط اقتصادي معين وسلوك اجتماعي أيضا، لأنه حتى اجتماعيا صار هناك مجتمعات خفت فيها تماما روح الإبداع والابتكار والقدرة على التجديد، ما جعلها عرضة لاستقبال وتقمص ثقافة الآخر واستهلاك ما هو جاهز.

إلا أن هذه النظرة تلقت انتقادات من قبل بعض الباحثين على اعتبار أنها نظرة تشاؤمية، ولذلك اقترح هربرت ج. جانس تصنيفا آخر للثقافة ممثلا في:

1- الثقافة العليا:

تشمل الفن، الموسيقى والأدب الرفيع، تجذب فئة قليلة من المتلقين.

أ- الثقافة العليا للطبقة الوسطى:

تضم المهنيين من ذوي التعليم الجيد، يستمتعون أكثر بالروايات والأفلام.

ب-الثقافة الدنيا للطبقة الوسطى:

تضم الأفراد ذوي المهن الأقل مدنية، أقل اهتماما بالفن والأدب.

2- الثقافة الدنيا:

أفرادها يحبذون القصص ذات الطابع العاطفي والأخلاقي التي تدور أحداثها حول قصص الأفراد والمشاكل العائلية.

الثقافة الكلية يصبح فيها أسلوب حياة الشخص بكامله خارج الاتجاه الثقافي السائد في المجتمع، والثقافة الجزئية تكون فيها أذواق الجماعات ضمن وليس خارج الذوق الاجتماعي العام[(7)].

تبقى هذه التصنيفات محل جدل ونقاش في الوسط الأكاديمي، إلا أن ما يمكن التأكيد عليه أن الثقافة لا تشير إلى مجموع الأفعال والبرامج السطحية (موسيقى وبرامج فولكلورية فحسب) التي لا تمت بصلة إلى العمق القيمي للمجتمع، وإنما يجب النظر إليها باعتبارها ذلك الكل الذي يجمع بين مخرجات مختلف الأبنية الاجتماعية، التي تساهم في خلق رموز قيمية يمكن توريثها من جيل لآخر وتساهم في رسم أبعاد هوية المجتمع.

ثانياً- تعريف الهوية:

فيما تعلق بمفهوم الهوية Identity فهو الآخر من المفاهيم التي تعددت بشأنها التعريفات والأوصاف فيقال الهوية الدينية والهوية العرقية والطائفية وأشملهم الهوية الوطنية، وينظر للهوية على أنها إحساس فرد أو جماعة بالذات، فهي وعي بالذات[(8)]، وفي ذلك ارتباط بالمعنى اللغوي للمصطلح، فالهوية في شقها اللغوي مشتقة من الضمير "هو" الذي تم وضعه كاسم معرف بـ "ال" ومعناه الاتحاد بالذات[(9)]، فهوية الشيء تعني ثوابته ومبادئه، فالهوية تبقى قائمة مادامت الذات قائمة[(10)].

وقد اعتبر المفكر الفرنسي أليكس ميكشيللي أن الهوية عبارة عن: "منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها، فالهوية هي وحدة المشاعر الداخلية، التي تتمثل في وحدة العناصر المادية والتمايز والديمومة والجهد المركزي، وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة، التي تجعل الشخص يتمايز عمن سواه ويشعر بوحدته الذاتية"[(11)].

ويتفق معه في ذلك تعريف ريغاردجنكز للهوية الاجتماعية على أنها هي تصورنا حول من نحن؟ ومن الآخرون وكذلك تصور الآخرين حول أنفسهم وحول الآخرين. والهوية هي شيء قابل للنقاش وتأتي إثر عمليات التفاعل الإنساني[(12)].

وفي تعريف آخر للباحث سيف الدين عبد الفتاح فإن الهوية تشير إلى أنها: "فيض متجدد يعبر عن مجموعة من العقائد والمبادئ والخصائص والرموز، وهي تجعل أمة تشعر بالاختصاص والتمايز عن الغير والآخر دون إغفال أو انعزال، وهو ما يحدد بدوره الإطار المرجعي العام لتجديد الهوية وإعادة إنتاجها، ومن ثم تشكيل الروافد المعرفية والوجدانية والرمزية والسلوكية والحضارية، ليصل في النهاية إلى الدور الأهم

في تشكيل الهوية والوعي بها وتفعيلها، وهو التعارف الحضاري الذي يمكن أن يتم من خلال خمسة عوامل هي: الوعي بالذات، تحديد الموقع بين الأمم، تحديد الأهداف، بلورة المشكلات، مواجهة التحديات."[13]

ما يلفت انتباهنا في هذا التعريف التأكيد على أن الهوية هي عبارة عن شعور متجدد قابل لإضافة أشياء والتخلي عن أخرى حسب درجة التمازج والاختلاط بالآخر الذي يتحدد من خلال العلاقات الثقافية. وهو ما يؤكده ذات الباحث بقوله أن التراجع الحضاري لأمة من الأمم يعني الكف عن تجديد الهوية، مما يحولها لأشياء يتم تلقينها للناس دون أن تعني لهم الكثير[14]، وذلك من خلال الترويج للثقافة البسيطة التي لا ترتبط بالبناء القيمي الفعلي للمجتمع.

أما عن محددات الهوية فإنها تبدأ من مرحلة الطفولة حيث تتم عبر آليات هي:

1- اكتساب الهوية أو التقمص:

من خلالها يتكون الفرد الإنسان.

2- الأفعال والأشياء:

يحدد الفعل تصورين: الأول يتعلق بنوعية الشيء كالطول والوزن والشكل واللون، والثاني يتعلق بالنشاط الداخلي الخاص بالفرد كالجهد المبذول، الشعور أو الإحساس، ما يؤدي بالفرد إلى تكوين أشكال وكيفيات خاصة به تكون قاعدة لهويته، ولكل فعل شيء يؤدي وظيفة معينة (15).

وقد حدد صامويل هنتنغتون مصادر الهوية كما يلي:

- السمات الشخصية:

تشمل العمر، السلالة، الجنس، القرابة، الاثنية، العرق.

- السمات الثقافية:

تشمل القبيلة، العشيرة، الإثنية، اللغة، الدين، القومية، الحضارة.

- السمات الإقليمية:

تشمل الجوار، القرية، البلدة، المدينة، الإقليم، الولاية، المنطقة، البلد، القارة،نصف الكرة الأرضية.

- السمات السياسية:

تضم الانشقاق ضمن الجماعة، الزمرة، القائد، الجماعة ذات مصلحة معينة، الحركة، القضية، الحزب، الإيديولوجية، الدولة.

- السمات الاقتصادية:

تضم الوظيفة، الشغل، المهنة، مجموعة العمل، المستثمر، الصناعة، القطاع الاقتصادي، الاتحاد العمالي، الطبقة.

- السمات الاجتماعية:

تتضمن الأصدقاء، النادي، الفريق، الزملاء، المكانة الاجتماعية.

وفي مستوى آخر حدد الباحثون ثلاثة دوائر للهوية من الأضيق إلى الأوسع كالآتي:

- دائرة الفرد ضمن مجموعة واحدة، حيث يتمايز الفرد عن ذويه من نفس المجموعة بهوية خاصة،
- دائرة المجموعة المتمايزة ضمن الأمة،
- دائرة الأمة المتمايزة بين الأمم الأخرى[16].

أما الباحث سيف الدين عبد الفتاح فقد أوجز خصائص الهوية فيما يلي:

- الهوية لا يمكن أن تتشكل نتيجة تفاعلات وانجازات ومواقف عشوائية.
- المفردات التي تشكل الهوية لا تنقطع عن إنجازات الأمة في الماضي والحاضر.
- الهوية تملك المعايير ونظام القيم، وسلم ترتيبها والمشكلات والتحديات التي تواجهها.
- النظام اللغوي هو الواسطة التي تستخدم في الإحساس بمعاني الهوية وعناصر تشكلها.
- الهوية تظل مشروعا تحت التأسيس.
- الهوية بحاجة إلى تجديد مستمر في الوعي والسعي[17].

انطلاقا من هذه الخصائص يتأكد أن الهوية هي مسار تكويني تراكمي غير عشوائي، ومن ثم فأي خلل يعترض هذا المسار من شأنه أ ن يؤثر على حيثيات حقبة زمنية كاملة للمجتمع، وإن صح التعبير جيل كامل، وذلك لأن هوية المجتمع تساهم في تحديد طبيعة علاقته بمحيطه الإقليمي والدولي.

المحور الثاني

دور المحددات الثقافية في بناء الهوية المجتمعية بين الانفتاح والتحفظ

ترتبط الهوية بشكل كبير بالثقافة السائدة في المجتمع، وعلى هذا الأساس فإن تعرض الثقافة إلى أي تغيير سينجر عنه مباشرة تغير في سمات الهوية السائدة في المجتمع، فالهويات يمكن أن تتشكل عبر الثقافات الرئيسية والثقافات الفئوية التي ينتمي لها الأفراد، وبالنسبة للباحثين المتأثرين بالنظريات الحديثة للثقافة والهوية فإنهم ينظرون للهوية باعتبارها نشأت من الانخراط في ثقافات وثقافات فئوية معينة، أما نظريات ما بعد الحداثة فهي تميل إلى اعتبار المسألة أكثر تعقيدا، فيما ارتبط بنظرة الأشخاص من أصول وأعراق مختلفة لهوية الانتماء الواحد، فستيفن فروش Stephen Froshمثلا يعتبر أن الهوية إفراز من الثقافات، فعملية بناء الهوية تبعا لذلك ستؤثر عليها بشكل كبير جميع التباينات والأمزجة السائدة في البيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة[18].

وتبعا لذلك فإن إدراك الأفراد لغيرهم أو لـ الآخر يتم من خلال خلفيتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية والإطار الايديولوجي والديني الذي يحكمهم، وكل هذه المؤشرات تتمحور حول العامل الثقافي، ما يفتح المجال للحديث عن احتمالات الصراع الحضاري والثقافي الناتج عن التعددية الثقافية وعدم قدرة الأفراد وفي صورة كلية المجتمعات على استيعاب الآخر، الذي ينجر عنه الثنائية التناقضية الاستبعاد والإقصاء مقابل الاندماج والهيمنة[19].

وبالحديث عن الانفتاح الثقافي تتحدد الخطوط الفاصلة بين الهوية والثقافة ودور هذه الأخيرة في رسم معالم الهوية المجتمعية، فالانفتاح الثقافي يشير إلى الاستفادة العلمية والفنية الصحيحة من الغير

دون المساس بالقيم والعقائد والمبادئ والهوية. وفي تعريف آخر لابن مانع فإن الانفتاح الثقافي يعني عدم اتخاذ الفرد موقفا سلبيا مما هو جديد عليه سواء ماديا، أو معنويا لمجرد أنه جديد، بحيث يتقبل هذا الجديد ويتفاعل معه حتى يثبت له بطرق معقولة عدم فائدة التعامل مع هذا الجديد[20].

وقد برز مع بداية القرن الحادي والعشرين الحديث عن حوار الحضارات وحوار الثقافات وتعايش الثقافات وتقارب الثقافات، كبديل عن صراع وصدام الحضارات الأطروحة التي سادت مع نهاية القرن العشرين مع كتابات صامويل هنتنغتون، ويشير مصطلح تعايش الثقافات إلى كسر الحواجز المانعة من التقاء الثقافات وتفاعلها وتأثير بعضها في بعض في جو سلمي بعيد عن الروح العدائية والتعصب[21].

في خضم هذه المعطيات هل يؤثر الانفتاح الثقافي على الآخر على هوية المجتمع؟

في هذا الإطار يبرز مصطلح آخر عرف بالهوية الثقافية التي يتحدد من خلالها الارتباط الوثيق بين مفهومي الثقافة والهوية، فهذه الأخيرة تتكون لدى الفرد من خلال الثقافة التي يحيا فيها، فدور الثقافة هو تكريس الهوية، وفي هذا الصدد يقول الدكتور منير الرزاز: "التراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية، لأنها في النهاية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجتمعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية التي مرت بها والتي نسجت فيما بينها روابط مادية وروحية مشتركة أهمها وأعلاها رابطة الدين واللغة"[22].

وعليه يطرح كثيرا في الأوساط الأكاديمية الحوار أو النقاش بين إلزامية الانفتاح الثقافي على الآخر والتعرف على موروثاته وتقاليده الاجتماعية ولغته وتاريخيه، حتى تزول حالة الصدام واحتمالية الصراع، على اعتبار أن الاتصال والتواصل بين الأفراد والمجتمعات وفهم كل منا الآخر واحترامه يقلص من احتمالات المواجهة، وهذا ما يترجمه مصطلح متعدد الثقافات Multicultural الذي برز لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1941 من خلال الروائي هاسكلE. Haskell الذي أراد به وصف المجتمع المتحرر من النزاعات الإقليمية ومتعدد الأجناس والأعراق[23].

يضعنا هذا المصطلح أمام قضية نقاشية أخرى تتعلق بالمجتمعات المتعددة الثقافات لكن تجمع أفرادها هوية واحدة، هذه الصورة الاجتماعية تطرح خيطا رفيعا بين الهوية والثقافة وتجعل من الهوية نموذجا أكثر سموا من الثقافة، فيمكن للأفراد أن يكونوا متباينين ثقافيا إلا أنه تجمعهم هوية واحدة، وفي التجمعات السياسية الفيدرالية نماذج عديدة، وهذا ما يدفعنا لطرح السؤال التالي: هل للهوية حدود؟ وهل للثقافة حدود؟

الإجابة عن هذا التساؤل تتطلب بحوثا سوسيولوجية تبحث في أصل العلاقة بين الحدود الجغرافية والحدود القيمية وأثار التقاطع أو التمايز بينها، إلا أن ما يمكن ملاحظته من خلال مسح جيوسياسي لخريطة العالم وفقا لمنظور قيمي، يتبين أن هناك العديد من الحدود السياسية التي وضعت دون مراعاة للأبعاد القيمية للمجتمعات من ثقافة وهوية، وهو ما يفسر بؤر التوتر والنزاعات على الحدود السياسية لأسباب متعلقة بالهوية.

في جانب آخر هناك من المفكرين وصناع القرار وجماعات وأفراد آخرين يدعون إلى ضرورة التحفظ الثقافي بحجة الحفاظ على الهوية على اعتبار أن أي انفتاح قد يؤدي إلى انسلاخ الفرد عن ثقافته الأم المشكلة لهويته ويؤدي بذلك إلى فناء التنوع الثقافي المجتمعي باتجاه هوية عالمية واحدة.

الخـاتمـة:

إن الحفاظ على الهوية باعتبارها روح الفرد والمجتمع الذي يثبت من خلالها ذاته ووجوده يشكل ضرورة لا يمكن التهاون بشأن حمايتها، خاصة في ظل التحديات التي يفرضها واقع القرن الحادي والعشرين، بما يحمله من سرعة نقل المعلومة وسهولة الاتصال والتعرف على الآخر، وهو ما فرض واقعا تتجاذب فيه ثنائية التحفظ مقابل الانفتاح حيث تشكل الثقافة المدخل الأولي لفحص هذه الثنائية وتحليلها والتعامل معها؛ فالحفاظ على هوية المجتمع لن تتحقق إلا من خلال رعاية القطاع الثقافي في المجتمع، وأقول قطاع لأن الثقافة هي أكثر من مجرد أفكار وقيم وسلوكات يتجاذبها مجموعة من الأفراد، وإنما أكثر من ذلك هي مؤسسات تجسدها وتحميها وتعرف بها وتعمل على نشرها والتعريف بها بين مختلف أوساط المجتمع، مع الحرص على نقلها من جيل لآخر، كل ذلك في جو من الانفتاح على الآخر للتعرف عليه دون الذوبان فيه. فمعرفة الذات وتعريفها تساعد على التعرف على الآخر من جهة وتجعل الفرد مدركا لقيمه فيحافظ عليها من جهة أخرى.

بناء على ما تقدم فالنقاش حول الثقافة والهوية والبعد التواصلي بينهما لا يشكل محور اهتمام ذي بعد اجتماعي وحسب، وإنما يشكل نقطة نقاش تحمل في طياتها أبعادا أخرى من بينها البعدان: السياسي والأمني؛ إذ كثر الحديث بعد نهاية الحرب الباردة عن دور الأبعاد القيمية في صنع السياسات الداخلية والدولية على حد سواء، وتأثير ذلك على الخريطة الجيوبوليتيكية للعالم ككل، وذلك من مداخل عديدة في مقدمتها تغذية النزاعات الإثنية، والنزاعات ذات البعد الهوياتي، ناهيك عن الضجة الكبيرة التي أثارها صامويل هنتغتون وغيره فيما ارتبط بـ "صراع الحضارات" ، وما تلاها من تغييرات على مختلف الأصعدة. هذا إلى جانب اعتماد استراتيجيات عديد الدول على مفهوم القوة الناعمة في تمرير مشاريعها وتحقيق أهدافها، والتي تقوم في جزء كبير منها على المعطى الثقافي والهوياتي للفرد والجماعة.

وفي الأخير يمكن بلورة ما تقدم في مجموعة من النقاط الموجزة المعبرة عن النتائج النهائية للبحث المقام نوردها كما يلي:

- الهوية هي أحد الرموز المقدسة المعرفة للمجتمعات التي لا يمكن عولمتها أو قولبتها في صورة عالمية.
- الثقافة هي أحد المحددات الرئيسية للهوية.
- الحفاظ على هوية المجتمعات يتأتى من خلال رعاية قطاعات معينة في مقدمتها التعليم والاهتمام بالأسرة.
- في ظل تنامي العلاقات الاجتماعية على المستوى العالمي صار هناك ضرورة للتعريف بالهويات لتفادي الصدام.

- الثقافة طريق نحو التعريف بالهوية وهذه الأخيرة تشكل دافعا لدى المجتمعات للمضي في عمليتها التنموية.
- يمكن للهوية أن تشكل دافعا بشأن تدعيم العلاقات التكاملية بين المجتمعات وخلق مجتمع عالمي يسوده السلام.

الهوامش:

[*] كلمة ثقافة في اللغة العربية ذاع استخدامها مع عبد الرحمن ابن خلدون الذي يعني بها المعرفة المدنية المكتسبة من خلال نمط العيش العمراني المستقر، وفي اللغة الفرنسية جاءت للدلالة على الملكات العقلية مع خصوبة الإنتاج العقلي الذي تنامى مع عصر النهضة، وفي معناها الانجليزي استخدمت كمرادف للحضارة.

[1] ميكل تومبسون، ريتشارإليس وآخرون: نظرية الثقافة، ترجمة: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جويلية 1997، ص. 9.

[2] المرجع السابق، ص. 9.

[3] شرقي رحيمة: "الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، جوان 2013، ص. 192.

[*] قدم جوزيف ناي مفهومه حول القوة اللينة كمقابل للقوة الصلبة التي تقوم على استخدام الدول لوسائل القوة العسكرية والسياسية وحتى العقوبات الاقتصادية لتحقيق أغراضها وتنفيذ مصالحها، ويطرح هذا البعد من القوة العديد من الإشكالات القانونية والمساءلات حول حجم التكاليف وشرعية الاستخدام، وهو ما دفع الباحث إلى الحث على استخدام القوة اللينة المرتبطة بتغيير المجتمعات عن طريق المداخل الثقافية-الهوياتية، وخلق شبكة من العلاقات يصعب معها فك الارتباط، وفي ذات السياق وبهدف المزاوجة بين القوتين قدم ذات الباحث لاحقا مفهوم القوة الذكية Smart Powerكإشارة لاستخدام الدول للقوتين في سلوكها الخارجي.

[4] شريف كناعنة: دراسات في الثقافة والتراث والهوية، مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، فلسطين 2011، ص. 47.

[5] هارلمبسوهولبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، سوريا، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص. 49.

[*] بينت دراسات في المجتمعات العربية تراجع سن المراهقة إلى سن أو عمر ما بين سبعة وتسعة سنوات.

[6] هارلمبسوهولبورن، مرجع سابق ، ص. 51.

[7] المرجع السابق ، ص. 53.

[8] حبيب صالح مهدي: دراسة في مفهوم الهوية، دراسات إقليمية، مركز الدراسات الإقليمية، ص. 4.

[9] شرقي رحيمة، مرجع سابق، ص. 193.

[10] زغو محمد: أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، أفريل 2010 ، ص. 94.

[11] الهوية، مؤسسة لجان العمل الصحي. في الموقع:http://www.hwc-pal.org

[12] هارلمبسوهولبورن، مرجع سابق، ص. 97.

[13] ياسمين زين العابدين: "الاختلاف الثقافي" و"ثقافة الاختلاف" بين المنظورين الإسلامي والغربي: قراءة في بعض النماذج الفكرية، في: الثقافة ودراسات الشرق الأوسط، أعمال المؤتمر العربي التركي الأول للعلوم الاجتماعية، المجلد الثاني، فيفري 2012، ص. 253.

[14] المرجع السابق، ص 253.

[15] بوساحة نجاة وشرقي رحيمة: "تأثير الانفتاح الثقافي على أبعاد المواطنة لدى الشباب الجزائري"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص. 676.

[16] مفهوم الهوية، مؤسسة لجان العمل الصحي . في الموقع:http://www.hwc-pal.org

[17] ياسمين زين العابدين، مرجع سابق، ص. 253.

[18] هارلمبسوهولبورن، مرجع سابق، ص. 14.

[19] ياسمين زين العابدين، مرجع سابق، ص. 252.

[20] ناريمين فضل عدوان: ملامح الانفتاح الثقافي في الفكر التربوي الإسلامي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، غزة، الجامعة الإسلامية، 2008، ص. 29.

[21] المرجع السابق، ص.32.

[22] شرقي رحيمة، مرجع سابق، ص. 193.

[23] ياسمين زين العابدين، مرجع سابق، ص. 25